تعقيب

لعبة الأمـــــم

جربت الولايات المتحدة صناعة الإنقلابات لتوقع الوطن فلا يعـــرف أبـــدا طريقه الى التحرير والوحدة وإنقاذ ثرواته وبناء مستقبله، ولكن تجاربه الأولـــى كانت سيئة في سوريا، اذ فشل انقلاب حسني الزعيم بعد زمـــن قـــصير حـــين اكتشف أنه "صبي من صبيان الأمريكان" فدفعت أديب الشيشكلي بقيـــادة ســـامي الحناوي اسما بمحاصرة بيته وقتله.. ولكن الشيشكلي أيضا لم يستطع الإستمرار في السلطة بالرغم من مساندة أقوى دولة في العالم له فـــي حكمـــه.. وخرجـــت الإمبريالية الأمريكية بدروس قيمة وهي أنه حتى ينجح أي زعيم فـــي انقلابـــه ويبقى هذا الإنقلاب مستمرا حتى تقيم معه علاقات مستقرة، يجب أن تكون حوله طبقة تسانده، وتشاركه المنافع، وتشعر أنها تمارس قيادة جماعية معه. وأن تكون له صفات شخصية كأن يكون مجنون سلطة، ولكن بإدراك واتـــزان، ويـــستطيع حمل الجماهير على الإلتفاف حوله بطرح شعارات ثورية على الجماهير تتلهـــى بها دون أن يفقد زمام الموقف بإثارة هذا الشعور..

وهذا ما نجحت فيه الإمبريالية الأمريكية في مصر فدفعت بمثل هذا الزعيم ليقود المسرح العربي ويلعب فيه لعبة الأمم.

وكتاب مايلز كوبلاند يصوّر العلاقات بين الولايات المتحدة ونظـــام عبـــد الناصر قبل انقلاب يوليو حتى هزيمة حزيران عام1967

ولست هنا في معرض تلخيص الكتاب، ولكن لأبرز دور هذه اللعبة القـــذرة في ضرب حركات التحرر جميعا في الوطن العربـــي وإقامـــة علاقـــات غيـــر متكافئة، جعلت الوطن العربي يرزح تحت وطأة الإستعمار الحديث.. وقادته الى

الهزائم والذل، وأغرقته في الديون، وسلبته حريته في أن يقرر مصيره.. ويكون عضوا نافعا في جملة المجتمعات الإنسانية..

كان من أهداف الولايات المتحدة الأولى إخلاء ساحة الشرق الأوسط من الإنجليز والفرنسيين، والحلول مكانهما والتفرّد بنهب الثروات النفطية من المنطقة، ثم إقامة منظمة دفاع إقليمية ضد المد الشيوعي لا ينفذ منه السوفييت.. ولكن الخطر الثاني كان بعيدا بينما الخطر الأول كان مباشرا وملحا..

وأرسلت مبعوثيها ممن تدرّبوا على إحداث الإنقلابات الى مصر(المؤلف أحدهم) قلب العالم العربي الذي بدأت الأمور تتفاقم بينه وبين الأمريكيين، وتزيد شقة الخلاف ما بينهما يوما عن يوم. وحاولوا دفع فاروق للقيام بالثورة السلمية، ولكن بدا أن الملك يتردد في اتخاذ الإجراءات الأساسية في خطة الإنقلاب التي وضعها "كيرمت روزفلت" حفيد فرنكلين روزفلت، وهو موظف في سلك المخابرات المركزية الأمريكية ورئيس بعثة الإنقلاب. ولكنه وجد أنه مشغول أكثر بالعربدة منه في تنفيذ خطة الإنقلاب!. وأفترض أن السبب الرئيسي في عدم صلاحية فاروق بالإضافة الى صفاته الشخصية، هو أنه كان عليه أن يحارب الطبقة التي ينتمي اليها لنجاح الإنقلاب. ففي البلد المتخلف يتشابك الإقطاعيون والبرجوازية الصناعية والتجارية، ولا يكون من فاصل فيما بينهم. وهذه الطبقات كانت جلها مرتبطة المصالح مع الإنجليز.. فكان من الأفضل دفع طبقة أخرى الى السلطة واعتماد زعيم يمثلها.. وبسبب غياب طبقة وسطى في مصر كان لا بد من الإعتماد على جهاز بيروقراطي يهيمن ويسحق أية مقاومة تقف في طريقه، ويكون أقوى من أي حزب وأية حركة بمفردها..

وقبل أربعة أشهر من قيام إنقلاب الضباط الأحرار، وجدت البعثة الإنقلابية في عبد الناصر الشخصية التي يمكن لها أن تلعب دورها بنجاح ضمن مخططات

الإمبريالية الأمريكية، فلقد كان بالإضافة الى شخصيته الجذابة مرنا يمكن التحدث معه في أي موضوع ولو كان الصلح مع إسرائيل!..

وما أن قام الإنقلاب حتى أغرق النظام الجديد بالمساعدات مقابل عدم التعرض لأصدقاء أمريكا الممتازين في المنطقة، اسرائيل، وعدم المساس بالمصالح النفطية الأمريكية..

ولا بد لنا أن نصنف أصدقاء أمريكا وحلفاءها في الشرق الأوسط قبل أن نستعرض خوافي اللعبة، بالترتيب:

1-اسرائيل 2-البرجوازية التجارية البترولية 3-الطبقة التي تكونت على عل هامش البرجوازية البترولية من رجال الأعمال وأصحاب المصارف وشركات استيراد مواد البناء وأجهزة آبار البترول والهيئات الوسيطة لشركات البضائع الإستهلاكية، ومقاولي الأبنية، ومؤسسات الدعاية الضخمة من صحف ومجلات موالية، والأحزاب والسياسيين المرتشين.. أما حلفاؤها من الدرجة الرابعة فهم الحكومات العسكرية والدكتاتورية والبيروقراطية التي تتلقى المساعدات لقاء شروط وسياسة معينة، فالعلاقة معهم تحمل طابع الفوضى والغموض والتقلب، وهم أشبه بالجنود المرتزقة الذين كانوا يبيعون سواعدهم في الماضي للأقوى وتشن بهم الإمبراطوريات حروبها.. لقد تحولوا في العصر الحديث الى أدوات قمعية للتنكيل بشعوبهم، وإخماد طموحهم للحرية.. والإمبريالية الأمريكية محتاجة دوما لتجعلهم في ظروف تتكوّن فيها مصالح لهم، فيأتمرون بأوامرها ويقومون بالمهمات في ظروف تتكون فيها مصالح لهم، فيأتمرون بأوامرها ويقومون بالمهمات التي تأنف منها البرجوازية البترولية أو تعجز عنها كضرب الحركات الثورية الشعبية كما حدث للإخوان المسلمين والشيوعيين، وضرب الحركة الفدائية الفلسطينية والقيام بالتسويات السلمية.. ولا عبرة لما كان يحدث أحيانا من تناقضات بين هذه الفئات، فهي جميعا تخدم

مصلحة واحدة غير مصلحة شعوبها.. وكلنا نذكر الصيحات الهستيرية من إذاعة القاهرة ضد حلف بغداد. فالمعارضة لم تكن للحلف ذاته، ولكن لأنه مكشوف، ولأن لبريطانيا اليد العليا فيه، ولأنه يجعل من العراق مركز القوة في هذا الحلف، ويحرم عبد الناصر من الدور الذي آلى على نفسه أن يلعبه، ويربح به النفوذ والمساعدات. لقد وجد في الحلف محاولة لتقويض نفوذه بدل تقويته، فأثار كوامن غضبه.. يقول مايلز كوبلاند:

"ما لبث عبد الناصر أن خاطبنا مذكرا إيانا أنه –بغض النظر عن حديثه مع ايفلاند وجيرهارت، لم يفهم من جميع الأمريكيين الذين لهم علاقات معه ومنهم السفير كافري، سوى أن الحكومة الأمريكية ستعطيه الفرصة الكافية لإنشاء منظمة دفاع اقليمية عربية بدون أن يكون لها أية علاقة مكشوفة مع الغرب. وسيتم بناء هذه المنظمة الدفاعية بصورة تسمح لها أن تجد مكانها المناسب ضمن مجموعة الخطط الغربية حال ظهور أي خطر يهدد الجميع" ص13

وبنفس الضراوة التي حارب فيها عبد الناصر حكم نوري السعيد، حارب فيها حكم عبد الكريم قاسم الوطني الذي أراد تأميم شركات النفط العراقية. لأن الأول ينافسه والثاني يخرج من نفوذه ويفضح لعبته..

ونجد العداء يستشري بينه وبين شمعون لأن الأخير كان يريد علاقة مباشرة مع الولايات المتحدة، ولا يريد أن يكون عبد الناصر وصيا عليه.. خصوصا وأنه ينتمي الى الطائفة المسلمة وله في لبنان أنصاركثيرون! وشمعون يحرص على أن لا ترجح كفة السنة في لبنان على الطائفة المسيحية بسبب ناصر.

وتتذبذب علاقاته مع الملك حسين فهو مرة بالنسبة اليه سليل الخيانة، وأخرى الأخ الكريم حسب موقع الأخير من الإستعمار البريطاني أو الإمبريالية الأمريكية، أو انسجامه مع مخططات ناصر أو خروجه عنها..

فما هي هذه المخططات؟

هل هي الوحدة العربية؟

هل هي استرداد فلسطين؟ هل هي تحرير ثروات الوطن العربي من براثن الإمبريالية الأمريكية؟

هل هي الإشتراكية؟

كانت هذه الأهداف الجماهيرية بعيدة عن مفاهيم عبد الناصر فهو لم يشعر أنه عربي الاّ حين أراد دالاس أن يرضخ سوريا المتمردة التي أطاحت بحكمي حسني الزعيم والشيشكلي الإنقلابيين الأمريكيين الى الهاوية، وبدا لها أن الأمور تنفلت من قبضتها يوما بعد يوم.. وتكوّن حكما استقلاليا عنها وعن مخططاتها الهادفة الى السيطرة على العالم بنفوذ عسكريتها ومخابراتها واحتكاراتها، وتدخلها السافرفي أنظمة الدول التي فيها مصالحها..

ان أية وحدة ترضى عنها السياسة الأمريكية يجب أن تكون ضمن أهدافها وبتوجيهها ولمصلحتها، كإقامة منظمة دفاع اقليمية، أو ضرب حركة تحرروطني، أو توفير الحماية للممرات البترولية، أو عقد صلح مع إسرائيل.. فاذا ما أصبحت الوحدة جماهيرية وأفلت زمام قيادتها منها ضربتها دون هوادة أو كبحت تقدمها أو تدخلت تدخلا مباشرا لمنعها..

يقول مايلز:

"ان الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفر زعيم في بلد عربي رئيسي يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب، وله من القوة ما تمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الغوغاء مثل عقد صلح مع إسرائيل. واستنادا الى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر، فان استتباب النظام ورضوخ الأمة أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الأمر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والإرهاب" ص89

ولكن هذا لا ينفي أن البرجوازية الصناعية المصرية كان لها مصلحة كبيرة في الوحدة لأنها تجد المجال الحيوي في البلدان العربية لتصريف منتجاتها.. على عكس البرجوازيات التجارية البترولية التي ترفض أية وحدة رفضا باتا، وتفضل تقوقعها الإقليمي، والحفاظ على ثروتها البترولية لذاتها، لأن أي انفتاح على الوطن العربي يجعلها تعطي ولا تأخذ..

"كانت أولى المبادئ المتبعة في صناعة الإنقلابات في أي بلد عربي، هي أن ترفع شعارات وطنية اقليمية فمصر للمصريين، وسوريا للسوريين، والعراق للعراقيين. وكل الكلام عن الأخوة العربية وشعار "كلنا عرب" لم يكن يتعدّى الحدود العاطفية الضيقة، ولم يكن له أي اعتبار في ميزان القوى لأي انقلاب عسكري، ويبقى الولاء للإنقلاب هو المقياس الرئيسي لنجاحه أو فشله. ولقد انطبق هذا الوضع تماما على المصريين عامة، وعبد الناصر خاصة. فعندما قام بانقلابه لم يكن ليعرف الا ّالقليل عن العرب، بل لم يكن ليشعرأنه عربي..

وكان عبد الناصر يصبح أكثر تعصبا لمصريته وأقل حماسا لعروبيته كلما نشبت الأزمات داخل مصر، وفي تخطيطه لاستراتيجيته السياسية لايتردد في وضع المصالح المصرية فوق غيرها معتبرا مصالح العرب كلها تابعة لمصالح مصر". ص66

كان الأمريكيون قد كسبوا الى جانبهم حتى ذلك التاريخ كلا من العراق ولبنان والأردن والأردن وتركيا وايران وباكستان، فهل كان هدف الوحدة بالنسبة الى عبد الناصر الا ّإرضاخ سوريا التي كانت ترفض المساعدات الأمريكية، مما اضطر وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لقتل عدنان المالكي عن طريق الحزب القومي السوري، كبداية لسلسلة المؤامرات على سوريا لإسقاط نظامها الديموقراطي زمن شكري القوتلي؟

يقول مايلز "أصبحت القومية العربية فيما بعد قوة ذات أهمية رئيسية في مخططات ناصر، الاّ أن أهميتها عنده تكمن في كونها أسطورة وليست حقيقية".ص92

ويقول عن المساعدات التي تقدّم له لمثل هذا الدور:

"عندما كان ناصر يضمن تأييد المصريين وحدهم، كانت قيمة المساعدات التي يتقاضاها منا لا تتجاوز جدلا "س" وعندما يضمن تأييد العالم العربي فالنتيجة أحسن، والقيمة تتضاعف وتغدو "س2" وفي حال وقوف العالم الإسلامي معه تبلغ "س3" وعند مؤازرة الدول الإفريقية والأسيوية يحصل على مساعدات تبلغ "س4"

لم نكن نشترط عليه أن يكون الناطق بلسان الجميع، بل كان يكفيه أن يبرهن أنه يملك زمام التأثير عليها حتى يتقاضى كامل أجره، ومطلق تعويضاته" ص179

فالوحدة التي كان يتزعم لواءها عبد الناصر لم تكن في الحقيقة الاّ وهما اذ ليست غايتها التحرر الوطني ولا تحرير ثرواتنا النفطية، بل لقمع الأولى وعدم المساس بالمصالح الأميركية ولهذا ارتفع شعار ناصر إبان الوحدة بأن المعركة مع الإستعمار قد انتهت، والتفت الى ملاحقة خصوم أميركا من القوى الوطنية وممثلي حركات التحرر في الوطن العربي..

* * *

الكمين

مهد عبد الناصر لقيادة الأمة العربية بصفقة الأسلحة التشيكية التي أظهرته بمظهر البطل الوطني المعادي للإستعمار قديمه وحديثه، ولا يستلهم الاّ طموح أمته، وكان هذا هو المقلب الذي غير قناعة عفيف بعبد الناصر، وجعله يسارع

للوحدة معه، فالوحدة في قناعته لا تكون الا بين بلدين عربيين متحررين من الإستعمار.. انه الموقف ذاته الذي جعله في محاكمة العجلاني يرفض دعوى المتآمرين على سوريا في ضمها في وحدة مع العراق. وكانت المحاكمة بادرة قانونية لا سابق لها في العلاقات العربية، لأن عراق نوري السعيد كان لايزال مستعمرا من الإنجليز والوحدة معه تفقد سوريا استقلالها وحريتها.. هذه الحرية التي ناضل من أجلها الفرنسيين وحكم عليه غيابيا بالإعدام.. فكيف يمكن أن يسعى الى وحدة مع مصر لو كان يعرف حينذاك حقيقة عبد الناصر التي كشفتها له الأيام؟

وأذكر تهليل الضباط الكبار في بيتنا وهم يستمعون الى أخبار تأميم القناة، هؤلاء الضباط أنفسهم الذين اتهمهم عبد الناصر بمحاولة الإنقلاب الشيوعي بزعامة الفريق في سوريا، ومنهم من أسلمهم الوزارات، ومنهم من نقلهم الى مصر بعد الوحدة، ومنهم الضباط الفلسطينيون الذين جرى تسريحهم من الجيش السوري..

كان عبد الناصر يتظاهر دائما أن ما يجري من أخطاء وتجاوزات هو من سوء إدارة مرؤوسيه، وأنه لا يثق بعامر لأنه مدمن حشيش، ويوحي لعفيف بأنه الجدير في قيادة جيش الوحدة بين سوريا ومصر، وأن عليه أن يتوجه مباشرة الى عبد الناصر في ما يشكو من تصرفات عامر.. وحين سافر الى القاهرة ليحتج على التسريحات الأخيرة في الجيش كانوا قد هيأوا الكمين للغدر به واستفزازه وإقالته من الجيش نهائيا!..

كثيرون هم الذين غدروا بعفيف، ونقموا عليه موقفه الصلب من الهجمة الإمبريالية الأميركية على سوريا، وساهموا في إضعافه وتشويه سمعته، وليست فقط أجهزة عبد الناصر التي فعلت ذلك! كان يثق بضباط أكفاء حوله بمراكز قيادية، ولكن طموحهم الفردي جعلت قلوبهم تتحوّل الى عبد الناصر، لأنهم فشلوا

في تحقيق هذا الطموح عن طريق دفع عفيف الى دكتاتورية عسكرية في سوريا، ولم يكن عفيف يتهمهم في وطنيتهم، اذ لم تكن الأمور مكشوفة لديه بشكل واضح، كما كانت المؤامرات على سوريا تتكشف له من خلال المحاكمات..

قاد عفيف وحدة تكون قوة للأمة العربية، وتحرير فلسطين. ورضي بها عبد الناصر تحت المظلة الأميركية تسير في ركابها وتحقق مصالحها!..

واليوم وأنا أكتب هذه الذكريات عن الوحدة تصدر مذكرات أكرم الحوراني، وفيها يعترف بأنه حذّر عبد الناصر من انقلاب شيوعيي يقوم به عفيف في سوريا، ويتملكني الأسى أن عفيف أشاد بوطنيته في كتابه سوريا جزيرة الحرية الخضراء! فربما كان هذا التحذير سببا هاما لإقالة عفيف من الجيش، ولكن على ضوء ما تكشف من أحداث، لم يكن عبد الناصر ليعدم الأسباب لفعل ذلك. اذ أن غايته من الوحدة هو إضعاف الجيش السوري حتى لا يستطيع مواجهة إسرائيل، ولا يمس المصالح الأمريكية بسوء.. فالمعركة مع الإستعمار قد انتهت بالنسبة اليه!

الإستعمار بالنسبة لعبد الناصر كان الإستعمار القديم المتمثل في بريطانا وفرنسا، أما الهجمة الإمبريالية الأمريكية على المنطقة، والإستعمار الحديث، بعسكريته المتطورة وجهاز مخابراته المركزي، وعملائه في العالم، سياج عبودية الإنسان المعاصرة على الكرة الأرضية، فلم يكن يراه، ولا يريد أن يراه!..

لنتأمل هذه الفقرة من كتاب مايلز كوبلاند:

"في منتصف سبتمبر 1955 تلقى كيرميت روزفلت رسالة شخصية من ناصر تفيد أن الأخير على وشك التوقيع على اتفاقية مع الروس وأنه يرحب بروزفلت في القاهرة ان كان عازما على الرجوع عن عزمه هذا. وفي اليوم التالي غادرت وروزفلت واشنطون متوجهين الى القاهرة.

... ولكن روزفلت أدهش عبد الناصر عندما عزف عن إقناعه برفض الأسلحة وقال: "ان كانت الصفقة حقا بمثل هذه الضخامة التي سمعنا بها، فما عليك الاّ القبول بها، لأنها وان أغضبت البعض فستجعل منك بطلا عظيما وتكسبك تأييدا فريدا. فلماذا يا ناصر لا تستغل هذه الموجة المفاجئة من التأييد الشعبي لتتخذ بعض القرارات التاريخية حقا؟

.... واتفقنا على أن أكتب لناصر مسوّدة المقطع الذي سيتضمن هذا النبأ". ص154

لماذا وقفت المخابرات المركزية من ناصر هذا الموقف عندما اشترى سلاحه من السوفييت، وجن جنونها حين اشترى عفيف منهم قبله سلاحه منهم؟

بقيت المساعدات العسكرية الأمريكية لناصر معلّقة تماطل فيها لا خوفا من عمل عدواني ضد إسرائيل، ولكن لتدفع ناصر لطلب المساعدة الروسية العسكرية، فما دام دور عبد الناصر في اللعبة هو طرد البريطانيين والفرنسيين من المنطقة فمن الأفضل أن يحدث هذا بسلاح غير أمريكي، فتنقذ الولايات المتحدة ماء وجهها أمام حلفائها القدامى. ومشكوك فيه أن يكون ناصر قد دفع الى هذا التصرف دون وعي منه لأبعاد دوره في اللعبة.. كان عفيف صاحيا لتصرفاته حين كنا في مصر، كان يلاحظ دوما أنه في كل مرة يريد بها أن يقوم بها باتفاق خطر مع الأمريكيين، كان يغطي عمليته بتقرّب مزيّف من الإتحاد السوفياتي. وهذا ما أتاح له، بشكل لا لبس فيه، أن يفهم مقاصده حين قامت ثورة تموز في العراق.. فلم السلاح الذي اشتراه من تشيكوسلوفاكيا اذن؟ فهم نوع حياده الوهمي الذي يتشدق به، فما كان في لعبته أي حياد ما دام المنتفع الأول والأخير من سياسته هي الإمبريالية الأمريكية التي أصبحت تسيطر على الشرق الأوسط بضم سوريا المتحررة ثم العراق اليها..

أصر عفيف على موقفه في أن لا يشارك في اللعبة في بقائه في مصر أو في قبوله بأي منصب مدني يعرضه عليه عبد الناصر، فحدسه كان ينبئه عن استحالة التوفيق ما بينهما، فلكل منهما هدف ليس للآخر..

أما "إنذار دالس" حينذاك فلم يكن أكثر من تمثيلية للإستهلاك الشعبي، فعندما ذهب جورج آلن للقاء ناصر لم يقرأ من الإنذار الاّ اليسير، ثم حول حديثه بالإستفهام من ناصر حول الطرق التي تنوي حكومته أن تنفق فيها الأربعين مليونا من الدولارات للمساعدات!..

* * *

مشكلة فلسطين

كانت الجماهير العربية على اختلاف طوائفها وطبقاتها الإجتماعية، تولي مشكلة فلسطين واستردادها الأولوية على سائر شؤون الحياة الأخرى بصورة لا تقبل الدجل.. ولكن بعد خمس سنوات من الهزيمة انتهت أحاديث الثكنات الى رأي معاكس.. فقد لمس الضباط المصريون أن حشدهم لموارد الدولة المصرية وطاقات شعبها أجدى عليهم، يساعدهم للوصول الى أهداف أبعد من خدمة القضية الفلسطينية. ومنذ قام انقلاب 25 يوليو1952 لم تتطرق البلاغات كلها البتة الى مشكلة فلسطين، أوأي ذكر لإسرائيل ولو بكلمة واحدة أو خطاب واحد..

فمن أجل أي شيء كانت صفقة السلاح؟

ما كانت غايتها اسرائيل.. توجه السلاح الى اليمن، وشهر في وجه الحركة الشيوعية في سورية، والثورة في العراق، وزود به ألوف القوميين لضرب حكم عبد الكريم قاسم. لم يكن سلاح مصر للتحرير، ولكن لتذبح حركات التحرر بعضها بعضا، وتثار بها النعرات الطائفية والشعوبية في لبنان وفي كل مكان من الوطن العربي!..

وبعد سنوات، وبعد قراءتي للعبة الأمم وحبال من رمل والزهور تدفن في اليمن كنت أدرك لأول مرة دور ذلك الرجل الذي راقبني وأنا أتقدم للإمتحان في الجامعة الأمريكية، وسمعت منه لأول مرة عن عبد الناصرفي الوقت الذي كان فيه اسم محمد نجيب يملأ الأسماع.. ما كان سوى واحد من مبعوثي دالاس الذين أرسلتهم وكالة المخابرات المركزية الى الشرق الأوسط ليقوموا بالإنقلابات العسكرية لصالح الولايات المتحدة بعد أن نجحت مؤامرتها على ايران وقضت على حكم مصدق الوطني.. وعرفت أنه نفسه الذي كان يرسل التقارير الى دالاس بأن عفيف شيوعي، وهو ماكان يروّجه القوميون السوريون الذين جرت محاكمتهم بقتل المالكي، وكان على صلة وثيقة بأمنائهم. وهو ذاته الذي كان يتصل بعبد الناصر والسعوديين وشمعون في لبنان واليمنيين ونوري السعيد في العراق وميخائيل اليان والقوميين السوريين في سوريا.. وكان له في حرب ناصر لليمن باع طويل فهي موقع هام يصل ثلاثة بحار: البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهادي عن طريق قناة السويس التي أممها ناصر.. فكان من الضروري للولايات المتحدة أن تطرد الإنجليز منها لتحلّ مكانهم فأوكلت هذا الدورلناصر، وكانت تلك المذبحة الشهيرة لجيشه الذي أثخن بالجراح. وحصدت سياسته الملتوية الهزيمة مع إسرائيل حين شنت عليه الحرب عام 67

* * *

التأميـــم

كتب الفريق كتابه الناصرية في جملة الإستعمار الحديث فور عودتنا من بلغاريا بعد الإنفصال. وكتبت أنا بدوري روايتي بيوت بلا رجال التي استمدّت أحداثها من أفواه الناس ومن الشخصيات نفسها التي عانت ما عانت من الوحدة وسلطة صنيعة عبد الناصر السراج.. ويحدث أن تتوج الناصرية أعمالها وتخبطها بالتأميم، وتبدو كحركة اشتراكية!..

يبدو أن ما جرى لا يتفق والمنطق بحال ولكن كل ما حدث كانت له أسبابه ونتائجه الحتمية..

اعتمدت قيادة ناصر بسبب غياب البرجوازية المتوسطة التي كان بإمكانها أن تقيم التوازن الإقتصادي في مصر بعد انهيار الإقطاع المرتبط عضويا مع الملكية والإستعمار القديم على طبقة بيروقراطية غير منتجة هي التي كانت تشكل ذوي الياقات البيضاء الذين يتألف منهم الإتحاد القومي المصري، وتلتف حول عبد الناصر، وتدعم حكمه.. ولقد تمركزت في الوظائف العامة وفي الجيش والمخابرات ومراكز الدعاية في الصحف والإذاعة. وكانت تلك الأجهزة البيروقراطية من برجوازية صغيرة مدينية وفلاحية دعامته. ولقد اغتنت تلك الطبقة في عهده وأصبحت لها مصالح كالبرجوازية الصناعية..

لم تكن هذه الطبقة البيروقراطية خصما للبرجوازية الصناعية المتطورة في مصر أكثر من أي بلد عربي آخر الاّ في الحدود التي يطلب منها تقليص علاقاتها الإقتصادية مع دول أوروبا وتنميتها مع الولايات المتحدة. بقيت هذه البرجوازية مزدهرة بعد انقلاب يوليو، ووجدت أن عبد الناصر يتيح لها مجالات واسعة للكسب بسبب نفوذ مصر في الوطن العربي.. ولكن الطبقة الجديدة ما كانت قادرة لتحل محلها بالرغم أن القرارفي يدها لأنها عاجزة عن القيام بأعباء التصنيع الرأسمالي الذي يفترض تمركز رأس المال بأيدي أصحاب المشاريع الكبيرة..

ولهذا بقيت البرجوازية الصناعية المصرية هي الطبقة الإنتاجية المسيطرة في مصر بحكم استيلائها على وسائل الإنتاج، دون أن يشارك ممثلوها الشرعيون في الحكم.. وكانت مصلحتها تتنافر أحيانا ومصلحة الطبقة الجديدة، فترقب ما يجري بارتياب وحذر، فهي تتململ حينا وتستبشر أخرى بانطلاقها نحو امكانيات جديدة، ولما بدا أن الوحدة المصرية السورية تتأزم، وأن امكانيات

توسيع الطموح الوحدوي يفشل في العراق ولبنان، أخذت تعود الى قوقعتها وترفض سياسة عبد الناصر بمجملها، وتنقل مشاريعها، وتهرب أموالها الى الخارج.

ووجدت الناصرية أن سيادتها مهددة، فهي ليست الوجه السياسي للطبقة التي تتحكم في اقتصاد مصر.. وكان على الناصرية مواجهة أحد احتمالين: إما تصفية البرجوازية الصناعية المصرية، أو التخلي عن الحكم لممثلي هذه الطبقة.

ولما اختارت، كانت الطريقة الوحيدة التي تجعلها تستمر في الحكم بدون انهيار اقتصادي، هي أن تحتفظ لنفسها بالقدرة على تسيير معامل البرجوازية الصناعية بتأميم المصانع، وكف يدها كطبقة عن العمل..

ما كان للناصرية وأعوانها خبرة للقيام بهذا الدور، وقد حدث الكثير من الهدر الإقتصادي والفساد والرشوة في البيروقراطية الجديدة التي كانت تنظر لمؤسسات الدولة كأنها مائدة عامرة يغترف منها كل من أمكنه ذلك بدون حساب.. لقد اغتنى الكثيرون منهم بدون وجه الحق، حتى في الريف حيث قضي على الإقطاع وساد الإصلاح الزراعي فترة من الزمن، تشكلت إقطاعيات واسعة لأصحاب النفوذ من العسكريين، وعاد الفلاحون الى عبودية جديدة أسوأ مما كانوا زمن الإقطاع..

وهكذا كان عفيف يجد في التجربة الإشتراكية في مصر وضعا هجينا يرفض الطريق الرأسمالي للتصنيع ويرفض الطريق الاشتراكي العلمي معاً، وقد أوجدت الطبقة الجديدة البيروقراطية حالة من الجمود تطيل به دورها ووجودها كجسر بين طبقتين لهما مصلحة حقيقية في تصنيع البلاد.

كان تأميم المصانع في مصر ضربة للرأسمال الأوروبي الشريك الذي طرد من الساحة ليمهد للرأسمال الأميركي بنسبة تتجاوز الخمسين بالمائة.. وهكذا أصبح حكم البيروقراطية الناصرية اشتراكيا بمعنى أن التصنيع لم يعد ملك

الأفراد، بل هو ملك الدولة الشريكة للرأسمال الأميركي الموظف في تصنيع البلاد.. الرأسمال ذاته الذي يحصل عليه الأمريكيون من الأرباح الضخمة التي يجنونها من نهب الثروات البترولية ليعود مرة أخرى الى مصر ليستغل اليد العاملة الرخيصة في مصر، وينهب فائض القيمة ويصدّرها خارج البلاد.. وهذا ما لايشبه الطابع الإشتراكي العلمي الذي يتطلب بالأساس تحرير الثروات الطبيعية وتأميمها، والقطع البات مع توظيف الرساميل الأجنبية، أو أخذ القروض من مصارفها، والإستعاضة عنها بالأموال العربية حين تتوحد هذه البلاد، وتصبح ذات قوة لإقامة علاقات اقتصادية متكافئة مع الدول ذات المصلحة.. أما أن يقوم التأميم قبل هذا فهو لا يعني الاّ أن تبدل البرجوازية الصناعية التي كانت سابقا تابعة للإستعمار القديم، ببيروقراطية تابعة للإستعمار الحديث..

لقد اقترف الشيوعيون في سوريا خطأ نظريا بتسمية الطريق الذي انتهجه ناصر طريقا لا رأسماليا يقود الى الإشتراكية، لأنه من صميم الرأسمالية التي تطورت حتى أصبحت تفضّل أن تبني علاقاتها مع تكتلات بيروقراطية لامع شركات خاصة..

كان الشيوعيون يروجون لناصر بأنه أصبح شيوعيا بسبب التأميم الذي جرى في مصر. وكان عفيف يحاول إقناعهم بأن التأميم هو ظاهرة في الإشتراكية العلمية، وأن مضمونها لايتحقق الاّ في أن تكون فائض القيمة في بلدها، لا أن تتسرب الى جيوب المستعمرين عن طريق المنتفعين من العسكريين الذين لم يتبدلوا، ويقومون بدورهم السابق كما في الماضي بإجهاض كل حركات التحرر في الوطن العربي.. ولكنهم كانوا يقولون "الجماهير ناصرية، ولا نريد أن ننعزل عنها! وقد بلغ الصراع معهم المدى حين جاء خروشوف الى مصر وقلّد عبد الناصر وسام لينين!

وقد ذكرت ردود فعل عفيف وغضبه على لسان أحمد بطل روايتي بيوت بلا رجال ولا أحب أن أكررها في هذا المقام!..

لنتأمل هذه الفقرة من كتاب مايلز:

"لا يزال سلوك ناصر مع كافة شركات البترول العاملة في بلاده سلوكا مثاليا وخاليا من الأخطاء والآثام حتى يومنا هذا. وحتى في أروقة كبريات شركات البترول التي تُكره رجال الكونغرس على سماع شكواها من دبلوماسيينا الذين كانت لهم مواقف لينة مع ناصر، كان مدراء شركات بترول أخرى في تماس مع ناصر يصرّحون في مجالسهم سرا أنهم يفضلون معاملة كبار المسؤولين المصريين – مع ما بينهم من تفاوت في التفكير– على معاملة أخلص أصدقائهم من الزعماء العرب الآخرين وأصدقهم." ص272

كان الوضع في سوريا قبل الوحدة مختلفا عنه في مصر الى حدما. فالبرجوازية الصناعية السورية أقل تطورا منها في مصر، ولكنها كانت تقيم مصانعها بأموال وطنية صرفة. ولهذا نشأت في سوريا برجوازية وطنية تتجاوب مع أماني الشعب الوطنية. وحين أدركت حاجتها لتطوير إمكاناتها كانت تفضل التوجه الى البلدان الإشتراكية في طلب الخبرة الفنية وشراء المعدات لأنها تجدها أقل نفقة، ولا توقعها في شروط تمس سيادتها القومية.. ولكنها من جهة أخرى أن تنقلب الأمور الى ما يفسد خطها الرأسمالي في التصنيع. ولا نستغرب ان كنا نجد في سورية وضعا غير معقول لأول وهلة، وهو المساندة الكبيرة التي كانت تقدمها الحركة الشيوعية لممثلي هذه الطبقة "كخالد العظم" مثلا ضد البرجوازية التجارية الوثيقة الصلة بالبرجوازية البترولية في السعودية وممثلها "شكري القوتلي"

ولو ان الخط السوري للبرجوازية الوطنية استمر في تصاعده لكان ممكنا أن تنمو برجوازية صناعية غير مرتبطة بالإستعمار تبقى الى أمد طويل لها

مصلحة حقيقية في التحرير والوحدة مع الطبقة العاملة، فهي ناشئة وتعيش في جو ديموقراطي يمثل فيه كلا الطرفين لينالا حقوقهما دون حاجة لتغيير تعسفي في النظام.. ولكن الوحدة بين سورية ومصر، بسبب استيعاب الإمبريالية الأمريكية لها قضت على هذا التطور المستقل. فالبرجوازية السورية التي لم تكن بقادرة على أن تنافس البرجوازية المصرية التابعة، أفلست مشاريعها.. وكم من مصنع أغلق أبوابه وسرّح عماله ابّان الوحدة!..

استعانت الناصرية زمن الوحدة بحزب البرجوازية التجارية "حزب الشعب" والبرجوازية الصغيرة "البعث" لضرب الحركة الشيوعية التي كانت تحيا بالنظرية ولا تملك طبقة تحميها، ثم استعانت بأجهزة مخابراتها وبالإنتهازيين من حزب البعث لضرب البعثيين..

ولكن ضرب القوى الوطنية المناضلة ضد الإستعمار لم يعط الناصرية القوة بل أضعفها وأوقفها وحيدة، بعد أن ضربت الحركة الإصلاحية الدينية للإخوان المسلمين عام1954 وأضعفت مجموع قوى التحرر في الوطن العربي!..

* * *

الإنفصـــال

استشرت في سوريا الفئات الإنعزالية في الجيش بعد تصفية العناصر الوطنية منه. ووقفت الناصرية في طريق مسدود أمام استياء عام من البرجوازية الصناعية السورية التي أساءت اليها برجوازية أقوى منها، ومن الطبقة العاملة التي تأثر وضعها نتيجة لسوء وضع أصحاب المصانع، والفلاحين الذين كانت سنوات الوحدة سنوات جدب عليهم، ومزارعي القطن الذين لم ينفق محصولهم ولم يجد له سوقا في الخارج بسبب منافسة القطن المصري له.. وبلغ الإستياء ذروته بسبب مواقف سياسية لعبد الناصر لم يرض عنها زعماء البعث ومنها

تحويل مجرى الأردن والمشاريع المائية الأخرى التي تؤدي الى الصلح مع اسرائيل، فاستقال وزراء البعث واحدا بعد الآخر فكان الإنفصال..

لنتأمل هذه الفقرة لنعرف الأزمة الإقتصادية للناصرية:

"اقترح ناصر أن يقبل كنيدي إرسال أحد أصدقائه الى مصر لإجراء فحص دقيق لمصاعب الإدارة ومشاكلها. وفي أيار 1962 أرسل كنيدي صديقه الحميم "ادوارد ماسون" الى القاهرة وهو أستاذ كنيدي في الإقتصاد عندما كان الأخير يدرس في جامعة هارفرد..

ومنذ اليوم الأول لوصوله أخبره ناصر أن له الحق كاملا في أن يدقق في أمور البلاد وشؤونها كما يفعل ناصر نفسه.

وفي حزيران 1962 عاد ماسون الى واشنطن ليخبر كنيدي أنه لم يعثر على خطأ في تصرفات ناصر الرئيسة، وأنه ليس لديه ما ينتقده أو يجعله هدف نقاش أو جدال، ومن بينها تأميم ناصر لأجزاء ضخمة من الإقتصاد المصري، واتخاذه إجراءات ديكتاتورية مثل فرض رقابة على الصحافة، واعتقاله السياسيين المخالفين له في الرأي، وشن الحملات الدعائية ضد الزعماء العرب المخالفين له....

ظل تفكير المختصين بشؤون الشرق الأوسط في كل من البيت الأبيض ووزارة الإقتصاد في واشنطون وديا تجاه ناصر طوال عهد ولاية الرئيس كنيدي....

زادت المساعدات له.. وكانت الحكومة الأمريكية قد قدمت أكثر من خمسمائة مليون دولار كمساعدات منذ انتهاء الأزمة اللبنانية".... ص273 و276 و292

فكيف يمكن للإدارة الأمريكية أن تصمت عن الإجراءات التأميمية لناصر وتقدم له المساعدات الاّ لأنه يخدم مصالحها؟

ولنذكر أن الأزمة اللبنانية التي تحدث عنها مايلز ترافق الإنزال الأمريكي في لبنان حيث نزل في مطار بيروت المظليون الأميركان ليسدوا الفراغ الذي أحدثه غياب الإستعمار القديم من المنطقة باستعمارهم الحديث حسب مبدأ ايزانهور.. وجاؤوا بجهاز مخابراتهم ليملأوا الجو اللبناني بالفتن الطائفية التي أدت فيما بعد الى الحرب الأهلية في لبنان..

كانت التبعية الإقتصادية هي الثمن الباهظ للعبة الخطيرة التي كان ناصر أمهر لاعبيها، فما جنى منها الاّ المصائب والهزائم للأمة العربية.. وبالرغم من جميع المساعدات التي كانت تقدم له من جانب الولايات المتحدة، كانت خزينته فارغة في بداية سنة 67 وقبل الحرب بشهرين والكلام لمايلز:

"كان شغل ناصر وضباطه الشاغل قبل الحرب بشهرين خراب إقتصاد البلاد وانهياره ففي بداية تلك السنة قام فريق من الباحثين يعملون لشركتي بإحصاء أدق الأرقام التي توفرت عن مقدار العملة الصعبة والذهب المخزون في مصر عام 52 يوم قام ناصر بانقلابه. ثم أضافوا اليه مجموع المساعدات الأجنبية من قروض وهبات التي تلقتها الحكومة، وأضافوا اليه مجموع ما ادخرته مصر من ثمن الصادرات بين منتصف 52 وحتى نهاية 66 وأنقصوا من المجموع الحاصل النفقات والمصروفات، الخارجية وثمن الواردات، فكانت النتيجة أن معدل عجز مصر التجاري قد بلغ حوالي أربعمائة مليون دولار سنويا، وقد استنفذ تقريبا كل تلك الواردات بما فيها قروض استدانتها الحكومة وعجزت عن إدائها. وعلى حد قول بروفسور لاكور فان احتياطي مصر تدنى حتى أضحى حوالي أربعين مليونا من الدولارات بشكل عملات صعبة. ولو أن امرءا حاول أن يبحث حثيثا في القاهرة عن تلك الستة والأربعين مليون دولار، لما كان له لدهشته أن يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة يجب دفعها لتسديد ثمن مشتريات طارئة لا مناص منها، فكم من معامل أغلقت أبوابها لنقص في

قطع التبديل لا تكلف أكثر من بضعة ألوف الدولارات. وأوقفت يومها شركة الطيران العربية المتحدة أربعا من طائراتها الكوميت السبعة لنقص في قطع الغيار، مع أن هذه الشركة تعتبر أحد مصادر العملة الصعبة في مصر. ولو أن الحكومة المصرية باعت يومها كل ما تبقى لديها من ذهب ما كان يكفيها هذا لأكثر من شهر واحد تسدد به ثمن ما اعتادت من واردات، وتدخر منه دراهم معدودات. وفي التقارير الإقتصادية الربع سنوية للسفارة الأمريكية في القاهرة نجد رأيا أن الحكومة المصرية كانت مفلسة فعلا قبل عام من الزمن أي في عام 66 ص292

كان ذلك الإنهيار الإقتصادي مقدرا له في مخطط الإمبريالية الأميركية، فهو نتيجة طبيعية لأنظمة تقدم لها المساعدات، فتنفق من أموال الشعب أضعافها على جيوش مرتزقة تخدم مصالح الأمريكيين كما جرى في حرب اليمن، وأجهزة مخابرات تقمع تطلعات الأمة الى الحرية والإستقلال، ومؤسسات دعاية تطبل وتزمر للإستعمار الحديث المقنع، وأخيرا للإتحاد الإشتراكي الذي كان يعدّ مليون نسمة من ذوي الياقات البيضاء لا عمل لهم!..

كان عبدالناصر يمهد الطريق للمستثمرين الأجانب في أن يغلغلوا رساميلهم في مصانع الدولة المؤممة، ويستغلوا اليد العاملة المصرية الرخيصة وينهبوا فائض القيمة الى بلادهم ولكن:

"عندما انكب المستثمرون الغربيون والذين كان يحتمل أن يوظفوا ثرواتهم في مصر عام 58 اكتشفوا أن "مشاريع ناصر الكبرى" داخل مصر ليست سوى نوع من "الإقتصاد الإمبراطوري" وقد نعتها بهذا الإسم جيلبت بروك في مقالة نشرها في مجلة فورتشن وقرأها يومها كافة رجال الأعمال الأمريكيين الذين عندهم اهتمام بشؤون الشرق الأوسط . وكشفت المقالة يومها أن جهود ناصر في وضع العربواحدا تلو الآخر تحت سيطرة القاهرة ليست سوى أحد طرفي مخطط

ضخم، وأن طرفه الآخر هو جعل مصر المركز الصناعي لامبراطورية عربية حديثة.. واستنادا الى هذه المقالة وعدة دراسات أخرى وزعت مدراء كبريات شركات البترول والبنوك وفئات أخرى من رجال الأعمال، فمن الخطأ تفسير خطط ناصر في التصنيع وبرامجه الواسعة في التحويل الإشتراكي، وخلقه لطبقتي أصحاب الدواوين والعسكريتاريا وغيرهما على أساس من مصالح مصر فقط وتقدمها، ولو أن مصالح مصر هي الطاغية، غير أن نية ناصر كانت التحكم بكافة اقتصاد العالم العربي وموارده الطبيعية دون استثناء البترول منها. ولم يكن اعتقاد رجال الأعمال في الغرب غير ذلك"..

ولما اكتشف الراغبون في الإستثمار الوضع الإقتصادي المنهار في مصر في بداية عام 67 أوعزوا الى أسرائيل اعلان الحرب على مصر وعبد الناصر في وضع مشلول.. وكان عليه أن يواجه حرب إسرائيل بعد حرب اليمن وهو في أضعف جيش وأسوأ انهيار اقتصادي في مصر، فكانت هزيمة مصر هزيمة للوطن العربي كله!..

* * *